عُلوٌّ في الحياة وفي الممات*

أبو الحسن الأنباري**

علوٌّ في الحياة وفي الممات ... لَحَقٌّ، تلك إحدى المعجزاتِ!
كأن الناس حولك حين قاموا ... وفودُ نداك أيامَ الصِّلاتِ
كأنك قائمٌ فيهم خطيباً ... وكلهمُ قيامٌ للصلاةِ
مددْتَ يديك نحوهم احتفاءً ... كمدِّهما إليهم بالهباتِ
ولما ضاق بطنُ الأرض عنْ أنْ ... يضم عُلاك من بعدِ الوفاةِ
أعطروا الجوَّ قبرك، واستعاضوا ... عن الأكفان ثوبَ السافياتِ
لِعُظْمك في النفوس بقيت تُرعى ... بحُفَّاظ وحراس ثقاتِ
وتوقدُ حولك النيرانُ ليلاً ... كذلك كنت أيام الحياةِ!
ولم أرَ قبل جِذْعك قط جِذْعاً ... تمكَّنَ من عناقِ المكرماتِ
أسأت إلى النوائب فاستثارتْ ... فأنت قتيلُ ثأر النائباتِ
وكنت تجير من صَرْف الليالي ... فصار مطالباً لك بالتِّراتِ
ولو أني قدِرتُ على قيامٍ ... بفرضك والحقوقِ الواجباتِ
ملأتُ الأرض من نظم القوافي ... ونُحت بها خِلافَ النائحاتِ
ولكني أصبِّر عنك نفسي ... مخافة أن أُعدَّ من الجُناةِ
وما لك تربةٌ فأقولَ تُسْقى ... لأنك نُصبُ هَطْلِ الهاطلاتِ
عليك تحية الرحمن تترى ... برحْماتٍ غوادٍ رائحاتِ

* يتيمة الدهر٢: ٣٤٤-٣٤٦.
** أبو الحسن الأنباري يرثي محمد بن بقية الذي مات مصلوباً.

التائب عن أكل السمك*

الجاحظ

اشترى محمد بن المؤمل مرة شبّوطة[١] وهو ببغداد. وأخذها فائقة عظيمة، وغالى بها، وارتفع في ثمنها. وكان قد بعُدَ عهده بأكل السمك، وهو بصري لا يصبر عنه، فكان قد أكبر أمر هذه السمكة لكثرة ثمنها ولسِمَنها وعِظَمِها، ولشدة شهوته لها.

فحين ظن عند نفسه أنه قد خلا بها، وتفرد بأطايبها، وحسر عن ذراعيه وصمَد صمْدها[٢]، هجمت عليه ومعي السدريُّ[٣]. فلما رآه رأى الموت الأحمر، والطاعون الجارف، ورأى الحتم المقضي، ورأى قاصمة الظهر، وأيقن بالشر، وعلم أنه قد ابتلي بالتنين.

فلم يُلبثه السدري حتى قوّر السرة بالمبال[٤]. فأقبل عليّ فقال لي: يا أبا عثمان! السدري يعجبه السرر! فما فصلتِ الكلمة من فيه، حتى قبض على القفا فانتزع الجانبين جميعاً. فأقبل عليَّ فقال: والسدري يعجبه الأقفاء! فما فرغ من كلامه إلا والسدري قد اجترف المتن كله. فقال: يا أبا عثمان! والسدري يعجبه المتون! ولم يظن أن السدري يعرف فضيلة ذنَب الشبّوط وعذوبة لحمه؛ وظن أنه سيسلم له، وظن معرفة ذلك من الغامض. فلم يدر إلا والسدري قد اكتسح ما على الوجهين جميعاً. ولولا أن السدري أبطره[٥] وأثقله وأكمده وملأ صدره وملأه غيظاً، لقد كان أدرك معه طرفاً، لأنه كان من الأكَلَة. ولكن الغيظ كان من أعوان السدري عليه.

فلما أكل السدري جميع أطايبها، وبقي هو في النظارة[٦]، ولم يبقَ في يده مما كان يأمله في تلك السمكة إلا الغيظ الشديد والغُرم[٧] الثقيل، ظن أن في سائر السمكة ما يُشبعه ويشفي من قَرَمه[٨]. فبذلك كان عزاؤه، وذلك هو الذي كان يمسك بأرماقه وحُشاشات نفسه. فلما رأى السدري يفري الفريَّ[٩] ويلتهم التهاماً، قال: يا أبا عثمان! السدري يعجبه كل شيء! فتولد الغيظ في جوفه، وأقلقته الرعدة، فخبُثت نفسه. فما زال يقيء ويسْلَحُ. ثم ركبته الحمى.

وصحّت توبته، وتم عزمه في أن لا يؤاكل رغيباً[١٠] أبداً ولا زهيداً[١١]، ولا يشتري سمكة أبداً، رخيصة ولا غالية. وإن أهدوها إليه أن لا يقبلها، وإن وجدها مطروحة لا يمسها.

الهوامش:

* من كتاب: البخلاء للجاحظ، تحقيق طه الحاجري، طبع دار المعارف ص٨٨.

(١) الشبوط: نوع من السمك النهري، دقيق الذنَب، عريض الوسط، صغير الرأس.

(٢) صمد: قصد؛ وصمَد صمَدها: قصد قصدها، أي: نحا نحوها.

(٣) السدّريّ: هو أبو نبقة، محمد بن هشام بن أبي خميصة. شاعر بصري صغير من شعراء العصر. كان يصحب الجمّاز وعبد الصمد بن المعذل والجاحظ وأدباء البصرة، وصحب الأصمعي وروى عنه. انظر التعليقات والشروح في كتاب البخلاء ٣٢١.

(٤) المبال: لعله يريد مكان البول.

(٥) البطر: الدهَش والحيرة.

(٦) النظارة: القوم ينظرون إلى الشيء.

(٧) الغُرم والغرامة: ما يلزم الرجل أداؤه، ضد الغُنم (غرِم - يغرم).

(٨) القَرَم: شدة شهوة اللحم (قرِم - يقرَم قَرَماً).

(٩) فرى: شقّ. والفري: الأمر العظيم؛ وفرى الفري: أتى بالعجب (كناية).

(١٠) الرغيب: الواسع الجوف من الناس وغيرهم؛ ويقال: هو رغيب البطن، أي: يكثر من الأكل.

(١١) الزهيد: القليل الأكل.